الأخلاقيات

أ - من مكارم الخُلق

قال تعالى في سورة لقمان :

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِه وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا
الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ
(١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا
وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ
خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ
عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ
فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)﴾ .

معاني المفردات

وَهْنًا : ضعفًا	مثقال : وَزْن	اقصِدْ : توسط بين السرعة والبطء
فِصَالُه : فِطامُه	خردل : حب صغير جدا	اغضضْ : اخفضْ
المصير : المرجعُ	تصعّر : تميل كِبْرًا	أَنْكَرَ : أَقْبَحَ
معروفًا : بالمعروف	مرحًا : متكبرا مختالا	
أناب : تابَ	فخور : كثير الفخر	

من آداب الزيارة

*****

قال تعالى فى سورة النور:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون (٢٧) فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم (٢٨) ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون (٢٩) ﴾

من مظاهر العفة

*****

قال تعالى في سورة النور ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون (٣٠) وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون (٣١) ﴾

معانى المفردات

تستأنسوا : تستأذنوا ممن يملك الإذن

أزكى لكم : أطهر لكم

جناح : ذنب

تبدون : تظهرون

تكتمون : تخفون

متاع : منفعة ومصلحة لكم

معانى المفردات

يغضُّوا : يكفوا نظرهم عن المحرمات

وليضْربن بخمُرهن يلقين ويُسْدلنَ

جيوبهنّ : صدورهن وما حَوَاليها

بعولتهن : أزواجهن

أولى الإربة : أصحاب الحاجة إلى النساء

الطفل : الأطفال (يستعمل لفظ الطفل للمفرد وغيره)

لم يظهروا : لم يبلغوا حد الشهوة

القرآن وتنمية مكارم الأخلاق[١]

*****

يحرص القرآن الكريم على أن يثبت فى النفوس مكارم الأخلاق ، ويدفع الناس إلى التمسك بالقيم العالية التى من شأنها خلق مجتمع فاضل كريم تتوثق فيه عُرَى[٢] الألفة والمحبة بين أفراده وتتسع برحابتها لتظلل كل فرد فى العالم .

ولئن كان الأساس الأول والمهم لمبادىء القرآن هو تعريف الخالق فإن ذلك من الناحية الخلقية هو البداية لوضع كل شىء فى موضعه الصحيح ، للتصرف بعد ذلك فى كل موقف التصرف المناسب السليم .

فإن معرفة الحقائق هى بداية الطريق للتعامل معها على أساس سليم .. وما الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إلا القاعدة الأساسية التى تبنى عليها كل القواعد، ولذلك حرصت الأديان السماوية على بناء كل تعاليمها على أساس من الإيمان .

ومن ناحية أخرى فإن إنكار وجود الله أو وصفه بغير ما يليق به يعتبر تزويرا لاترضى عنه مكارم الأخلاق . قال تعالى ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) ﴾[٣] .

وإن الإنسان ليكون يقظا حذرا فى كل أفعاله إذا وضع نصب عينيه أن الله مطلع عليه وسيحاسبه على كل صغيرة وكبيرة ويجزيه على عمله الجزاء الذى يستحقه ، قال تعالى ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) ﴾[٤] .

وما شرعت الصلاة إلا ليتذكر الإنسان دائما خالقه وحسابه معه ، فيتصرف دائما بالطريقة المثلى التى يرضى الله عنها . قال تعالى ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) ﴾ [٥] .

والصلاة ليست مجرد طقوس[٦] خاوية وإنما أساسها الخشوع والخضوع لله

---

(١) د . توفيق أبو نصرة (هل الأديان أو هام) ؟ (بتصرف)
(٢) عرى (جمع عروة) وهى : كل ما يُستَمْسَكُ به .
(٣) سورة الحج آية : ٣٠ . (٤) سورة البقرة آية : ٢٨٤ .
(٥) سورة طه آية : ١٤ . (٦) طقوس ، جمع (طقس) وهو : نظام أداء الشعائر .

تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ ﴾(١) .

والصوم ليس مجرد حرمان ، وإنما هو ترويض للنفوس وتدريب لها فى البعد عن الشر والزكاة ليست مجرد إعطاء وإنما هى إعطاء مع المحافظة على كرامة المعطى له دون انتظار أى مقابل . (ودون إلحاق المن أو الأذى بمن نقدم لهم الزكاة) .

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ٢٦٢ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ٢٦٣ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ٢٦٤ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥ ﴾ (٢) .

والحج ليس مجرد سياحة ، وإنما هو التزام بمكارم الأخلاق وتدرب على الترقى فى التمسك بالفضائل .

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ١٩٧ ﴾ (٣) .

ومعرفة الإنسان لنفسه تبعده عن الفطرسة(٤)والكبر على الناس والعظمة . فالكل عبيد الله لايمتاز أحد منهم على الآخرين إلا بعمله الصالح ، والكبرياء والعظمة ينفرد بها الله خالق كل شىء ،وهو الذى يخضع له الجميع .

ومعرفة النعمة تقتضى شكرها .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ٧ ﴾(٥) .

---

(١) سورة المؤمنون آية : ١، ٢، ٣ .
(٢) سورة البقرة : آية : ٢٦١ (المنّ) : فخر الإنسان بما قدمه للآخرين (الربوة : المكان المرتفع .
(الراء : الرياء) (الصفوان : الحجر) (وابل : مطر) (صلدا : قويا)
(الطّل : المطر الخفيف) .(٣) سورة البقرة آية : ١٩٧ (٤) الفطرسة ، هى : التطاول والتكبر .
(٥) سورة إبراهيم آية : ٧ .

ولا يقتصر الترغيب فى الشكر على زيادة النعم فى الدينا ، بل إنه مانع للعذاب فى الآخرة ، وليس الشكر خاصا بالمنعم (جل جلاله) بل إنه مطلوب أيضا لكل من تسبب فيها وفى مقدمتهم الوالدان .

﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) ﴾ (١) .

وإن الصدق والأمانة هما الدعامتان الأساسيتان اللتان يقوم عليهما أى مجتمع فاضل كريم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ (٣).

والتحية ضرورية عند اللقاء الأول ، وللبيوت حرمة لايجوز تعديها ، فلا يجوز دخولها من غير إذن أصحابها . وإذا كانت التحية لازمة فالرد على المُحيِّى بأحسن من تحيته أَلْزَم.

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ (٤) .

والعفو عن الإساءة أول درجات الرقىّ الأخلاقى .

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥) .

والمقصود بالتحية هو المسالمة ومن الضرورى مسالمة من يسالم ولو بتحيته .

﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) ﴾ (٦) .

أما الدرجة الأخلاقية العليا فهى الإحسان إلى المسىء .

أما إذا تمسك الإنسان بحقه فى معاقبة المسىء فلا يجوز أن تكون العقوبة أكبر من الإساءة .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾ (٧) .

(ذلك قليل من كثير جاء به القرآن الكريم لينمى به مكارم الأخلاق) .

---

(١) سورة لقمان آية (١٤) .　(٢) سورة التوبة آية ١١٩ .
(٣) سورة النساء آية : ٥٨ .　(٤) سورة النساء آية : ٨٦ .　(٥) سورة الشورى آية : ٤٠ .
(٦) سورة فصلت آية : ٣٤ .　(٧) سورة النحل آية : ١٢٦ .

خلق المعلم

*****

لو أدرك المعلم ما أسبغ الله عليه من التكريم ، ولو تمكن هذه الإدراك من وعيه ، لرأينا . كيف يصل المعلم بتلميذه إلى حال من النمو الفكرى ، والترقى النفسى تؤهله للعضوية البناءة فى مجتمعه ، وذلك ؛ لأنه إنما يصنع تلميذه فكريا ونفسيا من واقع ما هو عليه .

ولا يستقيم هذا الواقع ، ولاينحو بصاحبه نحو العطاء الصحيح ، إلا إن أدرك ماذا تعنى كلمة «المعلم» وأى شرف يكمن فى مدلولها .

فكلمة (المعلم) ، إنما تعنى الخروج بمن يعلمه من حال الظلام إلى حال النور ، أو من حال الموات إلى حال الإحياء ، أو غير هذا من التشبيهات التى تلتقى جميعها عند مفاهيم النور والحياة والترقى والوعى ..

ويكفى شرفا لهذا المدلول أن الله تعالى قد نسب إلى ذاته العليا صفة المعلم فى قوله تعالى ﴿ وعَلَّمَ آدمَ ﴾ (١) .

وقوله تعالى ﴿ واتَّقُوا اللهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ (٢) .

وفى قوله تعالى ﴿ خَلَقَ الإنسَانَ ③ عَلَّمَهُ البَيَانَ ④ ﴾ (٣) .

فهل من جلال لصفة بشرية بأكثر مما حازته صفة (المعلم) ؟

وما ذلك إلا لأن الحياة البشرية لاتصل إلى مراقيها إلا بالعلم والمعلم هو السبيل إليه .

غير أن العلم فى ذاته تتعدد مساربه إلى الشىء وضده ، بمعنى أن الله تعالى قد مكّن العقل البشرى من تطويع العلم للخير والشر ، وأطلق للعلم مجالات لاتحصى ، فيها السبيل إلى الوجه المشرق فى الحياة التى يرى فيها الإنسان كيف يحقق لنفسه فلاح الدنيا وفلاح الآخرة . وفيها السبيل إلى الوجه المظلم فى حياة تأخذ بالإنسان إلى فساد فى الدنيا وعقاب فى الآخرة .

ولا يتحقق الفضل بين السبيلين إلا بما يغرسه المعلم فى نفس تلميذه وعقله ، من القيم النبيلة التى تتجه بالتلميذ نحو الاستغلال العقلى الشريف للعلم ، فتلميذ اليوم

(١) سورة البقرة آية : ٣١ . (٢) سورة البقرة آية : ٢٨٢ . (٣) سورة الرحمن آية ٣، ٤ .

هو عالم الغد ، ومستقبل الحاضر لأمة من الأمم ، هو رهن بما نقيم عليه هذا الحاضر ، فالماضى غرسٌ للحاضر ، والحاضر غرس للمستقبل ، والمعلم فى كل مرحلة هو الأساس الذى يجعل معايير العلم عند أصالتها التى تستقيم بها الحياة فى كل مراحلها .

من هنا كان عظيمُ شأن المعلم ، ومن هنا - أيضا - كان من الضرورة التى لامناص منها أن يكون المعلم مدركاً للحدود التى لابد له أن يدركها وحدودٍ ينجلى عندها خلقه أولاً ، وحدود ينجلى عندها وعيه العلمى ، وحدودٍ ينجلى عندها فهمه للسلوك الذى يلزمه فى القول والفعل والمظهر ، وحدودٍ ينجلى عندها أسلوبه التربوى فى تعليم الصغار وتعليم الكبار ، وكل هذه الحدود هى المقومات التى تتأصل بها شخصية المعلم ، والتى تجعله أكثر تأثيرا فى تلاميذه ، وتجعل تلاميذه أشد تأثراً به .

ولأن المعايير الأصولية ثابتة ما ثبتت الحياة الإنسانية فإنه من المفيد هنا أن نذكر ماوصّى به (عتبة بن أبى سفيان) معلم أولاده ، إذا يقول له :

«ليكُنْ أولُ ماتبدأ به من إصلاح بنىَّ ، إصلاح نفسك ؛ لأنَّ أعينَهُمْ معقودة بعينيك؛ فالحسنُ عندهمْ ما اسْتَحسَنْت ، والقبيحُ عندهم ما استَقبحتَ . وعلمهم كتاب الله ولاتُكْرِهْهُم عليه فَيَملُّوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، وروِّهم من الشعر أعَفَّهُ، ومن الحديث أشرفه[1] ولاتخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه . وكن لهم كالطبيب لايَعْجَلُ بالدواء قبل معرفة الداء» .

فالوصية هنا تتساوق مع أصول القيم الثابتة فى مناهج المعلمين ، وإن اختلفت مسالكهم التعليمية والتربوية على مر الأجيال ، فإصلاح المعلم لنفسه هو مبتدأ الطريق إلى إصلاح تلميذه ، إذ يتخذ التلميذ من أستاذه القدوة العلمية والعقلية ، وغيرهما من ضروب القدوة ، فإن لم يكن المعلم على قدر ما يستوجبه العطاء ، لم يجد لديه ما يقوم به غيره ، لأن فاقد الشىء لا يعطيه ! وخطر الفقدان لا يتجلى إلا حين يتولى التعليم من ليس أهلا للتعليم ، وحين يتولى تهذيب الأخلاق ، من خلاق[2] له من الخُلق .

---

(١) ليس المقصود بالحديث هنا ، حديث الرسول ﷺ ، بل المقصود عموم الحديث الذى جرى على لسان الناس من أدباء وحكماء .
(٢) الخلاق : هو النصيب والحظ .

ولكن ، من يهدى المعلم وهو الذى يَهْدى ؟ ومَنْ يرشده وهو المرشد؟ ومن يدله على الصواب والخطأ فيما يقول ويفعل ؟

تلك مسؤولية الدولة فى إعدادها للمعلم ، بما تضعه من برامج إعداد المعلمين ، وهى أيضا مسؤولية المعلم نحو نفسه إن كانت بصيرته على يقظة تجاه ما يجب عليه، بل إن مسؤوليته نحو نفسه قبل مسؤولية الدولة نحوه ، فالله تعالى قد وكل المرء إلى عقله ولعقل المرء قدرته على تمييز الخبيث من الطيب ، فإن فاته ما يحصن به نفسه من وسائل إعداده من قِبَل الدولة فلا يفوته ما يحصن به نفسه من قِبَل عقله ، وإن قصرت برامج التعليم التى تعده وتهيئه للتعليم عن إعداده وتهيئته ، فلن يقصر به عقله عن إرشاده إلى ما يجب . وإن له من القراءة ، والتأمل ، والاهتداء بتعاليم الدين ، ما يعينه على بلوغ الأسباب التى تجعله جديرا بأن يكون معلما .

خلق التلميذ (١)

إذا كان من اللازم للمعلم أن يكون فى قوله وفعله ومظهره عند الحد الذى لابد منه للحكم عليه بأنه أهل للتعليم ، فمن اللازم للتلميذ أن يكون فى قوله وفعله ومظهره عند الحد الذى لابد منه للحكم عليه بأنه أهل للتعلم .

فحين يَفْقِدُ أصول ما يجبُ عليه فى تلقِّيه للعلم ، كان كالأرض الفاسدة التى لايصلح فيها غرس أو بذر .

وكم فى الحياة من مشاهد رأى الناس فيها معلما له شأنه من العلم والخلق ، يُلقى بعلمه وآدابه لتلميذ لاشأن له فى علم أو خلق .

وكم فى الحياة من مشاهد رأى الناس فيها تلميذا لايرتضى شيئا من طباع معلمه إن خرجت طباع معلمه عن حد الخلق الكريم .

فالتلمذة لاتعنى القدرة على الفهم ، ولاتعنى الالتزام بمواعيد الدرس ، ولاتعنى التفوق فى فهم المسائل العلمية . بل تعنى فى أصولها أن يكون التلميذ عند الحدود الخلقية فى تلقيه للعلم .

الحد الخلقى للتلميذ هو المبتدأ الذى لابد أن يتوافر لدى التلميذ ، وهو الأساس الذى ينبنى عليه صلاحية التلميذ للتعلم أو غيرها ؛ لأنه وهو على مقعد الدراسة غير مطالب بأن يكون عالما ، وليس مطلوبا منه أن يدرك من العلوم مالا يدركه معلمه ؛ لأنه لو كان كذلك لكان فى غنى عن معلمه ، لكنه فوق مقعد الدراسة تلميذ قدم إلى أستاذه ليسمع منه ما يستعين به على فهم الحياة ، ومايكتشف به خير السبل فى الحياة ،وما يخرجه من ظلمات الجهل ، إلى أنوار العلم ، ومعنى هذا أن العلاقة بين المعلم والتلميذ ، هى علاقة الهادى بالمهتدى ، أو هى علاقة المرشد بالمسترشد .

ومثل هذه العلاقة ، إنما تستوجب من التلميذ أن يكون المطيع لأستاذه فيما يأمره به ، وما ينهاه عنه ، وأن يخفض جناح الذل لأستاذه أدبا لاخوفا ولا خُنُوعاً ، وأن يعرف قدر معلمه فى العلم فلا يجادل ؛ لأنه لم يبلغ من العلم ما بلغه أستاذه ولا

(١) كلمة (التلميذ) ، معناها : خادم الأستاذ ، أو طالب العلم . وهى فى المعنيين تقتضى الخضوع والأدب .

يطيل فى الحوار إلا بقدر ما يريد من فهم المسألة التى بين يديه ، ولايخرج بأسئلته عن حدود ما يلقيه عليه الأستاذ من الدرس ،ولايقصد بسؤاله ما يوقع المعلم فى الحرج إن كان جواب السؤال فوق قدرة علم أستاذه والتلميذ يعلم ذلك ، وأن يجعل قصده من الجلوس بين يدى أستاذه أن يعلم ، وأن يفهم وأن يكسب جديدا .

وكل ذلك لايكون إلا فى جو من الطاعة ، وجو من الأدب الخلقى ، ومهما تفاوتت الفروق الاجتماعية بين التلميذ والأستاذ . فقد يكون المعلم من عامة الناس ، والتلميذ من خاصتهم ، وقد يكون المعلم من عامة الناس وتلميذه من أبناء الحكام أو الملوك ، فالاختلاف فى الطبقة الاجتماعية لايبيح لتلميذ أن يتعالى على أستاذه ، ولايعطيه الحق فى رفض الخضوع له ؛ لأن خضوع التلميذ لأستاذه ، إنما هو الرفعة فى أجل معانيها ، وهو الأدب فى أبهى صوره ، ويذكر التاريخ ماكان من أمر (محمد الأمين) و(عبد الله المأمون) وهما ولدا هارون الرشيد - حين طلب من (الكِسَائِىّ) أن يتولى تعليمهما أو تأديبهما .

ونترك للتاريخ هنا أن يروى ما قاله (الكسائىُّ)[1] فى هذه القصة قال الكسائى:

« أحضرنى الرشيد سنة اثنتين وثمانين ومئة في السنة الثالثة من خلافته ، فأخرج إلىّ محمدا الأمين وعبد الله المأمون ، وقال لى : امتحنهما . فما سألتهما عن شئ إلا أحسنا الجواب فيه .

فقال لى الرشيد : كيف تراهما ؟

فقلت : «فرع ذكا أصله وطاب مَغْرِسُه ، وعَذُبت مشاربه »[2] .

فقال : تَفَقَّدْهما .

فكنت اختلف إليهما فى الأسبوع طرفي نهارهما[3] . وأشرف الرشيد على الكسائى وهو لا يراه ، ووقف يسمع حديثه لولديه ، وبعد مدة من الوقت قام الكسائى ليلبس نعليه قبل أن ينصرف ، فأخذهما الأمين والمأمون فوضعاهما عند قدميه ، فقبّل الكسائى رأسيهما وأيديهما ، ثم أقسم عليهما ألا يعودا لمثل هذا .

---

(١) الكسائى : عالم من علماء اللغة فى العصر العباسى .

(٢) ذكا أصله : كان طيب الأصل .

طاب مغرسه : غُرس غرسا حسنا .

عذبت مشاربه : ارتوى من ماء عذب (والتعبير فى الجمل الثلاثة إشارة إلى حسن أخلاقهما) .

(٣) اختلف إليهما طرفى نهارهما ، أى : أجئ إليهما صباحا ومساءً .

فانصرف الرشيد مسروراً بما رأى وما سمع من ولديه وأستاذهما فلما جلس مجلسه قال لجلسائه : «أيُّ الناس أكرم خدما »؟ فقالوا : «أكرم الناس خدما هو أمير المؤمنين أعزَّه الله » . فقال الرشيد »:بل الكسائى ، فقد خدمه الأمين والمأمون، ثم حدثهم بما رأى وسمع ».

تلك قصة الأمين والمأمون - وهما الوليان للعهد - مع أستاذهما الكسائى .

وهى أصلح القصص على الاستشهاد بما يجب من أدب التلميذ مع أستاذه :لأنه أدب التلميذ المعدّ للحكم ، وهو أدب التلميذ الذى يملك السطوة والقدرة ، أمام معلم لا حيلة له فى السطوة أو فى القدرة . ولو أن تلميذا جاز له أن يتطاول على أستاذه ، فلن يكون لأحد من التلاميذ من السطوة ، ما يملكه أبناء الحكام والملوك .

ومن هنا كان قانون النظر إلى المعلم .

ومن هنا أيضاً كان قانون التقدير لمكانة المعلم .

ومن الدواعى التى تمنح المعلم قدرا لا يبلغه غيره أنه الإنسان الذى يتوافق مع الأب فى حرصه على أن يكون تلميذه خيرا منه .

فالأب يرضيه ويمتعه أن يكون ابنه خيرا منه ، وكذلك المعلم ، يرضيه ويغريه أن يكون تلميذه خيرا منه .

وما علم الناس على مر العصور أن أستاذا أخذته الغيرة من تلميذه ، تماما كما لم يعلموا على مر العصور أن والدا أخذته الغيرة من ابنه . إلا من قَدَّ الله قلبه من جلمود لحكمة يعلمها هو ، لكنه خروج عن القاعدة لا يرقى إلى حد التعميم ، بل هو الشذوذ الذى لا يقاس عليه .

خلق الطبيب

*****

الخلق الكريم منهج لا يلزمه شخص دون آخر ، ولا يختص به إنسان دون غيره، فالناس جميعا إنما يجدر بهم أن يكون حسن الخلق نهجهم الذى يسلكون به سبل الحياة فى كل جوانبها .

وإذا كان هذا من اللزوم الذى لا ينبغى تخلفه لدى كائن من الناس ، فإن منهم من يُعتبر الخلق بالنسبة إليهم أمرا يرتد إلى الناس حسنه ، كما يرتد إليهم سوؤه . والطبيب واحد من هؤلاء .

وحسن الخلق عند الطبيب لا يقف عند حد البشاشة فى وجه المريض ، أو ما يجب أن يلقاه به من الكلمات المطمئنة ، والجمل التى تستريح بها نفسه ، فذلك ونظيره أمر يتمتع به كثير من الأطباء من كان منهم على خلق حسن أو على خلق غير هذا ، سواء أكان مرد الترحاب والبشاشة هو الطبع ، أو كان مرده ما يغنمه الطبيب من مال المريض .

فالكلمات الطيبة ، وحسن الاستقبال ، ليست غاية ما يرجى من خلق الطبيب، إنما الخلق المرجو هو ما يتعدى الكلمات إلى حسن الخلق النابع من ضميره ، فالفرق كبير بين خلق يحاول المرء أن يكسو به سلوكه الظاهر ، وخلق كامن فى الضمير يحوطه الإيمان بالله ، ويحفظ على صاحبه شرف المهنة .

وعمل الطبيب ليس كغيره من الأعمال ، فهو الإنسان الذى ينفرد عن غيره من أصحاب الأعمال بخصوصية تتصل بحياة الناس فى سلامة أبدانهم ، وسلامة البدن هى الأساس الذى لا تصلح الحياة إلا به ، فلا رجاء فى إنتاج لدى العليل الذى تقعده العلة ، ولا نفع يرجى من عليل يقوم على رعاية أسرة لا عائل لها غيره ، وهكذا يكون أثر العلة لدى أصحابها فى كل جوانب الحياة على مختلف هذه الجوانب .

وضمير الطبيب فى علاج العلة، ليس مشروطا بما يبلغه الطبيب من العلم ، فليس على الأرض كلها من يحوز علوم الطب التى لا يقف أمامها مرض ، وإنما الضمير الطبى مشروط بمدى ما يكون عليه الطبيب من صدق في إعلان قدرته أو عجزه عن المعالجة ، ومشروط أيضا بمدى حرص الطبيب على دراسة حال المريض

دراسة يهدف بها الوصول إلى حقيقة علة المريض . دون ربط بين العلاج ومكانة المريض فى المال أو الوجاهة الاجتماعية ، فكم من مريض كانت رثاثة حاله سببا فى العناية الفائقة به !

فالربط بين حال المريض فى مجتمعه وحرص الطبيب عليه هو نوع من أنواع السقوط الضميرى .

ولكى ينجو الطبيب من عار السقوط الضميرى ، ولكى يتوافق لديه شرف المهنة مع شرف الضمير ، عليه أن يتجرد التجرد الكامل من كل النوازع التى تدفعه إلى العناية بمريضه أو عدم العناية تبعا لما يراه من مكانة مريضه أو سطوته .

والعناية العلمية الواعية الذكية من قِبل الطبيب ، وتجرده من العوامل الاجتماعية فى علاقته بمريضه ، يلزمهما بالطبع والضرورة استعداد نفسى يمكن الطبيب من الصبر على ما يلح به المريض من الأسئلة الكثيرة المتنوعة حول مخاوفه من مرضه ، وحول رغبته فى الاطمئنان على صحته ، ويقترن بهذا الصبر المشكور ، طيب الإجابة التى يطمئن بها مريضه ، والتى يزيل بها من نفسه أوهامها ، وتلك براعة علمية أخرى تضاف إلى براعته الطبية ، فكم يفعل الوهم المخيف بأصحابه ، إذ يدفعهم إلى ما يشبه الشعور الحقيقى بالعلة ، تماما كما يفعل الوهم المريح بأصحابه إذ يأخذهم إلى حال من الشعور بالبرء من العلة رغم بقائها .

فإذا ما استعان الطبيب بالصبر على مريضه ، وإذا ما أوحى إليه بأسباب الطمأنينة إلى جانب رغبته الصادقة فى تتبع العلة وأسبابها ، فقد حاز صفة الطبيب بأجل معانيها .

ويتوازى مع ذلك الخصوص السابق ، خصوص آخر يعلو بالطبيب إلى رتب النزاهة الملائكية ، ذلك الخصوص الآخر هو كونه الرجل الأجنبى الذى نسمح له بالاطلاع على عورات النساء والفيصل فى شرف هذا الاطلاع أو دناءته هو ما تنطوى عليه أعماق الطبيب ونيته ، ولا رقيب عليه فى هذا الأمر إلا إيمانه بالله ، ومدى تمكن العفة من نوازعه .

إذن فقد وضعته مهنته إمام اختبار علمى وضميرىّ ونفسى ، وما هو بالاختبار الهين ، وما هو بالموقف الذى يقوى عليه جميع الناس إلا من كان منهم أهلا لحيازة شرف الاختبار بكل مناحيه .

ومن رفعة الشرف لدى الطبيب ألا يتخذ من طبه وعلمه سبيلا إلى إعانة المرذولين والمخطئين على رذائلهم وأخطائهم ، أو يتخذ من طبه وعلمه ما يستعين به المجرمون على إنفاذ جرائمهم وراء ستار من شرعية الممارسة الطبية التى أتاحتها الدولة للطبيب .

فإن أخلص الطبيب ضميره لله ، وللعلم ، وصدق النية فى الوصول بمريضه إلى ما يرجو ، وإن لزم عفة النوازع وشرف الضمير ، فذلك هو الطبيب .

وإن استترت نفسه الشريرة وراء ادعاء الشرف ، فذلك رجل برئ الله منه وبرئت منه مهنته ، وهو حينئذ كما قال الشاعر حافظ إبراهيم .

وطبيب قوم أحلَ لطبه ... مالا تُحِلُّ شريعة الخلاّق

قتل الأجنَّةَ فى البطون وتارة ... جمع الدوانق من دم مهراق[1]

أغلى وأثمن من تجارب علمه ... يوم الفخار تجارب الحلاّق[2]

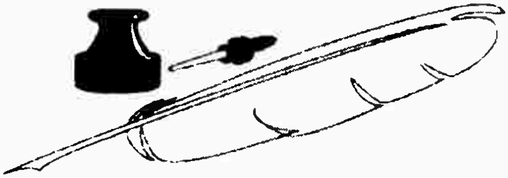

(١) الدوانق : جمع دانق . وهو نوع من العملة المالية .
(٢) يوم الفخار : أى حين يفاخر كل إنسان بعمله .

خلق المحامى

*****

إحقاق الحقوق بين الناس من الأمور التى لا يتهاون فيها الدين، والله سبحانه وتعالى قد يعفو عن الإنسان إن قصر فى شيء من العبادات ، ولكنه لا يعفو عن حق لإنسان على إنسان ، ولقد شدد القرآن فى أمر إحقاق الحق وضمانه لأصحابه ، حيث نبّه إلى هذا فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾(١) وفى قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾(٢) وقوله فى الآيه نفسها ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ وغير هذا من الآيات التى نبهت إلى ضرورة حماية حقوق الناس فى أموالهم وحياتهم وأعراضهم .

والحق - دائما - إنما يضيع بين ظالم ومظلوم ، والمظلوم هو الضعيف الذى لا يملك الحول أو القوة فى استرداد حقه ، ولا يجد سوى اللجوء إلى من ينصره فيأتى له بما ضاع من حقه .

وإذا كان استرداد الحق فى بعض أحواله يعتمد على القوة العضلية ، أو التخويف بعقاب ، فإنه في بعض أحواله الأخرى يعتمد على قوة الحجة وبيان البرهان الذى يثبت به استحقاق الحق المسلوب .

ومن الناس من يقوى على استرداد الحق بالقوة اليدوية ، أو بقوة الحجة وسطوع البرهان ، ومن الناس مَنْ يعجز عن دفع الظلم عن نفسه لافتقاره إلى قوة البيان ، وقوة الحجة ، بمثل ما أشار القرآن إلى هذا فى قصة الخصمين اللذين لجآ إلى (داود) عليه السلام ، حيث يقول تعالى على لسان الخصم المغلوب : ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾(٣) ونظير هذا كثير فى حياة الناس ، حيث يعجز مهضوم الحق عن إثبات حقه ، فيلوذ برجل يملك براعة الحديث الذى يكشف به الحق ويثبته لصاحبه ، وتلك عادة جرى الناس عليها فى كل زمان .

وفى عصرنا هذا صار المدافعون عن الحقوق رجالا أهلتهم الدولة لمثل هذا الأمر، وهم من تعارفنا عليهم بمصطلح «المحامين» .

---

(١) سورة النساء آية ١٠ .　　(٢) سورة البقرة : آية ٢٨٢ .

(٣) سورة ص آية ٢٣ (أكفلنيها : أعطنى إياها . عزّنى : غلبنى)

فالمحامى رجل أعدته الدولة ليكون لسان من اتهم ظلما ، أو سلب منه الحق ، فينوب عنه أمام القضاء بما يدركه من الاحتجاج ، وبما يملكه من المعارف القانونية التى تثبت الظلم للظالم وترفعه عن المظلوم ، وهو بهذه الصفة قد ألزم نفسه أن يكون الحق ديدنه [١] .

أو بتعبير آخر ، قد صار اتباع الحق فرضا عليه ، وصار تحرّى الحقيقة بين الخصمين أمرا لامناص منه فى كل ما يحاول إثباته لأحد الخصمين ، فإن لم يكن الأمر لديه على هذا النحو ، كان عمله وبالا عليه أمام الله ، وذلك حين يستغل براعته فى قلب الحقائق فيظهر المتهم الجانى فى ثوب المتهم البرىء ، ويسلب الحق ممن له الحق ، ليحمله إلى من لا حق له .

ففى ظل الخوف من العقوبة ، وفى ظل عجز المتهم - مذنبا كان أو بريئا - عن الدفاع عن نفسه يلجأ كل من الجانى والمجنى عليه إلى (المحامى) ، فالجانى يلجأ إلى المحامى ، والمجنى عليه يلجأ إلى المحامى ، هذا يريد إثبات حقه ، وإثبات ماوقع عليه من الجانى . والجانى يريد إزاحة التهمة عن نفسه ، وتبرئتها مما اقترفت يداه .

وهنا تتجلى لدى المحامى نزاهة الضمير ، أو دنس الضمير ، ومدار النزاهة والدنس فى قبوله أو رفضه للدفاع عن متهم يعلم أنه اقترف الجرم ، ويعلم علم اليقين أن (مُوكِّله) قد ارتكب الإثم ، فإن قبل الدفاع عنه فقد شارك المجرم جُرْمَهُ، واحتمل من الإثم ما يحتمله المجرم ؛ لأن دفاعه عنه هو خداع للقاضى ، والقاضى موكول فى إصدار أحكامه إلى قانونية ما يعرضه المحامى من حجج ، وما يكشفه من أسانيد يزيح بها التهمة عن (موكلة) ، ولالوم على القاضى ، ولا إثم عليه ؛ لأنه يحكم من خلال ما يسمع من الخصمين أو ممن ينوب عن الخصمين .

ولنا من رسول الله ﷺ خير دليل على براءة القاضى من إثم الحكم إن لم يكن فى موضعه ، ودليل على إثم (المحامى) حين يقلب الحقائق ببراعة حجته ، وذلك حين احتكم خصمان إلى رسول الله ﷺ ، فقال لهما قبل أن يسمع منهما أمرهما : **«لعل أحدكم ألحن من أخيه فأقتطع له قطعة من نار» أى لعل أحدكم أقوى فى حجته وقدرته الكلامية وليس بصاحب حق فأقضى له لقوة حجته ، بينما أقضى على صاحب الحق بعجزه عن إظهار الحجة .**

ومفهوم هذا أن استعمال البراعة الكلامية ،واستعمال الذكاء فى قلب الحقائق ، هو الجرم نفسه ، وهو الإثم نفسه ، وهو الأمر الموجب لعقاب الله ؛ لأنه إفساد

---

(١) ديدنه : عادته .

لحياة الناس ، ولأنه إغراء باقتراف الجريمة مادام هناك من يدافع عن المجرم ويبرئه مما أجرم به .

وكم شهدنا ، وكم نشاهد كثيرا من المحامين الذين ارتضى لهم ضميرهم أن يجتهدوا فى قلب الحقائق فيلجؤوا إلى الثغرات القانونية ليستغلوها فى الوصول إلى تبرئة المذنب . وإدانة البرىء .

وكم ضم السجن من الأبرياء ، بينما يرتع الأشرار المذنبون فى حياتهم الحرّة .

وكم أزهق القضاء حياة أبرياء ، بينما يحيا المذنبون . وما ذلك إلا بفعل (محام) عرف كيف يبرىء ، وكيف يدين ، لا من خلال ما يرضى الله ، بل من خلال ما يعرفُ من وسائل التحايل على القانون ، ومن خلال ما اكتسب من براعة القول .

والطامة الكبرى أن هذا المدافع وأمثاله يرون فى ذلك فخراً ، ويرون فيه سبيلا إلى كسب المال ، وكسب المال عندهم غاية الغايات ، لا يرعون فى سبيل توفيره دينا ، ولا ضميرا ، ولا خلقا .

وما هكذا كان الأصل فى مهنة المحامى . بل الأصل فيها أن يُسخر المحامى فهمه ووعيه وذكاءه من أجل إحقاق الحق ، لا من أجل الثراء ، وإثارة إعجاب الناس بقدرته الدفاعية .

من هنا ، كان من الضرورة التى لا مفر منها أن يكون (المحامى) عند رضا الله لا رضا الناس ، وأن يكون سعيه لإظهار الحق أولى بالعناية من سعيه لكسب المال ، وهو بهذا يعين على شيوع الأمن فى مجتمعه ، حين لا يجد المجرم من يبرئه من جرمه ، فيدرك المجرمون أنه لا سبيل إلى برائتهم .

وهو بهذا يعين على حفظ الحقوق لأصحابها ، وفى حفظ الحقوق حياة وأمن وطمأنينة .

وهو بهذا يرعى الله فى ضميره ، ودينه ، وكسبه ، وعلمه .

فإن لم يكن كذلك فقد باء بإثم كل من برأهم وهم مذنبون ، وألزمه الله التبعة فى كل ما يصيب المجتمع من مساوئ المعتدين على حقوق غيرهم .

وإذا حوى المجتمع من كانوا على ضمائر شلاء ، فقد حوى من المحامين من كانوا على ضمائر خشيت عقاب الله قبل حبها للمال والشهرة . وسعت إلى إحقاق الحق قبل أن تسعى إلى مجدٍ دنيوى مزيف ، يرفعهم فى الدنيا ، ويهوى بهم فى نار الآخرة، وذلك هو الأصل الأصيل فى مهنة المحاماة ، وهو الركن الركين الذى يقوم عليه شرف الدفاع عن الحق فى ذاته .

خلق التاجر

*****

قال صلى الله عليه وسلم : « **من غشنا فليس منا** » رواه مسلم .

هذه هى القاعدة الأصيلة فى علاقة الناس بعضهم ببعض ، فمجال الغش قائم فى كل الجوانب والمجالات التى تربط بين الناس .

وعلاقة التاجر بالناس واحدة من الأمور التى يتسع فيها المجال للغش والأمانة . وهى أيضاً ، واحدة من الأمور الخطيرة التى تؤدى إلى كثير من الفساد ، وكثير من الصلاح .

فالغش خروج بالشئ إلى غير حقيقته ، فهو تصوير للباطل بصورة الحق ، وتصوير للفاسد بصورة الصالح ، وتصوير للخطأ بصورة الصحيح ، وهو على كل الوجوه والأحوال خديعة تفسد على الناس حياتهم ، قلَّ هذا الفساد أو كثر ، وهو خديعة تحمل فى مضمونها معنى الاستخفاف بعقول الناس ، ومعنى الاستخفاف بما يضرهم ، قل هذا الضرر أو كثر .

والاستخفاف بعقول الناس ، والاستخفاف بما يضرهم ، هو صورة من صور الإجرام الذى يفسد على الناس حياتهم .

والتاجر فى معناه العام رجل يلجأ الناس إليه فى سد احتياجاتهم من الطعام والشراب ، والكساء ، وغير هذا مما تقوم به الحياة فى كل دروبها (١) ، وضروبها (٢) بما اشتملت عليه الدروب والضروب . وما من شئ فى حياة الناس جميعهم إلا والتاجر من ورائه . وما من صغير أو كبير فى حياة الناس جميعهم إلا والتاجر من ورائه .

فمنه نبتاع الطعام ، والشراب ، والدواء ، وأدوات البناء ، وملابس الكساء . وأدوات الكتابة ، وأدوات الزينة ، وغير هذا من كل ما تقوم به الحياة فى منازلنا وخارج منازلنا .

---

(١) الدروب : الطرق - والمفرد : (درب) .
(٢) الضروب : الأنواع - والمفرد : (ضرب) .

فكيف يكون الحال لو أن التاجر كان غاشّا لنا فى نوع ما يبيع ، وفى ثمن ما يبيع؟ الحال حينئذ هو هلاك الجسد ، إنْ كان الغش فى طعام .

وهو الموت ، إن كان الغش فى مواد البناء .

وهو ضياع المال ، إن كان الغش فى ثمن الشئ المباع .

إنه الخسران فى كل الأحوال !

وبناءً على هذا يأتى قضاء الدين بأن يكون التاجر عند القيم العليا فى بيعه . ومقتضى القيم العليا لدى التاجر ، أن يكون أمينًا على دينه فى كسبه ، فلا يرجو من الربح إلا بقدر ما يناسب بضاعته من الربح ، وأن يكون أمينا على دينه فيما يعرض من بضاعة ، فلا يعرض من بضاعته إلا ما كان صالحا للاستعمال ، وأن يكون أمينا على دينه فى تسويته بين المشترين ، فلا يُغْلِى الثمن لبعيد عنه ، ويُرخِصُه لقريب منه . ولنا من سلوك الإمام الأعظم (أبى حنيفة النعمان) أُسْوَةٌ حسنة ، إذْ كان الإمام معتمدا فى كسبه للرزق على تجارة القماش ، وحدث أن ترك بضاعته لعامل أقامه على بيع البضاعة فى غيابه ، فلما عاد إليه من سفر حدثه العامل بأنه قد باع ثوبا به عيب ، فسأله الإمام قائلا : - وهل أخبرت المشترى عن ذلك العيب . فقال العامل : - لا .

فما كان من الإمام أبى حنيفة إلا أن ذهب فى الطرقات ، والأسواق ، والأماكن باحثا عن ذلك المشترى ، حتى عثر عليه ، وحينذاك أخبره بالعيب الموجود فى الثوب الذى اشتراه ، وخيّره بين شرائه ، وتركه .

وتلك هى أمانة البائع ، حين لا يُخْفِى على المشترى عيبا فى بضاعته .

وتلك هى سلامة الخلق ، حين لا يرضى البائع غشّا فيما يبيع .

وذلك هو التدين القائم على الخوف من الله ، حين يدرك البائع أنه محاسب أمام الله على أمانته ، ومحاسب على غشه .

وهذا هو خلق التاجر إن أراد التاجر سلامة الدنيا وسلامة الآخرة .

الرفق بالخدم والضعفاء

*****

لا يستطيع إنسان على وجه الأرض أن يقوم على شؤونه بمفرده ، فهو فى حاجة إلى من يقوم بشؤونه ، أو يعينه عليها .

وكثير من الأسر فى كل المجتمعات ما زالت الأعمال المنزلية لديها ، تستلزم وجود الخدم ، وهو أمر لا بأس به ؛ إذ قضى الله أن تقوم حياة الإنسان فى حال من التفاوت بين الناس ، فليس عارا على رجل أن يكون خادما ، وأيضا ليس من الفخر المشكور أن يفخر المخدوم بوجود الخدم لديه ، ذلك لأنها حياة قدر الله فيها كل ما تجرى به هذه الحياة ، فلا فضل لإنسان على آخر ، ولا مفاضلة بين الناس جميعا إلا فى المفاضلة بين درجات التقوى وحسن الخلق ، ومن التقوى وحسن الخلق أن تكون النظرة إلى الخادم نظرة الاعتراف بأنه إنسان له ما لمخدومه من الحقوق الإنسانية جميعا ، بل نظرة الاعتراف بأنه ذو فضل على مخدومه وليس العكس .

ذلك ؛ لأنه المساعد على إتمام العمل ، والمذلل لطرقه ، والمعين على إنجازه ، ولولاه لكانت الحياة المنزلية شاقة مُجهدة ، إذ يضطر الناس فى غياب الخدم إلى القيام بأمورهم فى كل أحوالها وأوقاتها ، حتى وإن كانوا من ذوى الأعمال العامة الكبرى ، التى يجب التفرغ لها .

من هنا كان الخدم نعمة من نعم الله ؛ لأنهم مكنوا مخدوميهم من ممارسة وظائفهم وأعمالهم دون أن يشغلهم شاغل من الأمور المعيشية الأخرى ؛ ولأنهم سبب من أسباب ما يستمتع به المخدوم من راحة البدن والنفس .

ومن كمال الخلق ، وكمال العقيدة أن يرعى المخدوم خادمه فى نفسه ، فلا يؤذيه بنعت يضيق به صدره ، ولا بقول يجرح من كبريائه ، فإن له مثل ما لمخدومه من الشعور ، وله ما لمخدومه من كبرياء الإنسان ، وأن يرعاه فى بدنه فلا يكلفه من العمل إلا ما يطيق ، ولا يأمره إلا بما هو مستطاع . وإن أصيب بمرض هيأ له من العلاج ما يحتاج إليه ، وأن يجرى له الأجر الذى لا غَبْن فيه ، وأن يجعل طعامه من طعام أهل بيته وملبسه من ملبسهم إلا ما دعت إليه الضرورة فى تفاوت المظهر .

فكل هذا إنما يحول بين الخادم ونفسه إن سوّلت له نفسه أن يسرق أو يضمر شرا ، حين لا يجد إلا المهانة ، والغبن فى الأجر ، والحرمان من الطعام وصفوة القول ، وأن يكون للخادم ما لسيده من أمور الحياة فى حدها اللائق بآدمية الخادم ونفسه .

ولنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسوة حسنة فى معاملة الخدم ، فقد قال : «**ما خففت عن خادمك فى عمله فهو أجر لك فى موازينك يوم القيامة**»(١) . وقال : «**اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم أطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فما أحببتم فأمسكوا، وما كرهتم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله ، فإن الله ملّككم إياهم ، ولو شاء لملّكهم إياكم** »(٢) .

واغتاظت عائشة رضى الله عنها من خادم لها ، ثم رجعت إلى نفسها فقالت : «لله درّ التقوى ما تركت لذى غيظ شفاءً » تريد أن التقوى ومخافة الله وطاعته تحول بين المغتاظ وشفاء غيظه ممن غاظه ، فإن هم بعقابه صرفته تقوى الله عن هذا العقاب .

وقيل للأحنف بن قيس : « ممن تعلمت الحلْم ؟ » قال : «من قيس بن عاصم » قيل له : «فما مبلغ حلمه ؟ » قال : « بينما هو جالس فى داره إذ أتته خادم بسَفُّود عليه شواء ، فسقط السفود من يدها على ابن له فأصابه فمات ، فدَهِشَتْ الجارية وكادت تموت خوفا ، فقال « ليس يُسكِّن روع هذه الجارية إلا العتق » فقال لها : «أنت حرة ، لا بأس عليك » .

وكان عند ميمون بن مهران ضيف فاستعجل على جاريته العشاء ، فجاءت مسرعة ، ومعها قصعة مملوءة ، فعثرت ، وأراقتها على رأس سيدها ميمون . فقال : «يا جارية أحرقتينى » فقالت : «يا معلم الخير ومؤدب الناس ارجع إلى ما قال الله تعالى » قال : «وما قال الله تعالى؟» قالت : «والكاظمين الغيظ » قال : «قد كظمت غيظى » قالت : «والعافين عن الناس » قال : «قد عفوت عنك » قالت « زد؛ فإن الله تعالى يقول «والله يحب المحسنين . » قال : «أنت حرة لوجه الله » .

وأمثلة ذوى الخلق الكريم فى معاملة خدمهم لا حصر لها ، فهى كثيرة بكثرتهم ،

---

(١) أورده المتقي فى الكنز (٢٥٠٢٨/٩) عن ابن حبان والبيهقى وأبى يعلى عن عمرو بن حريث .
(٢) رواه أبو داود فى الأدب برقم (١٣٢) .

وزد على كرم الخلق لزوم الإيمان بالله ، ولزوم الإيمان يقتضى أن نتقى الله فيمن أنعم الله علينا بهم من الخدم ، ومن كانوا على مثالهم فى الأعمال العامة مثل السعاة فى الدواوين الحكومية وغيرها من مجالات الأعمال ، وكذلك الضعفاء فى كل مكان ، والعجزة ، والأطفال ، فكل أولئك إنما يسرالله لهم سبل الحياة الطيبة لدى من ملكت قلوبهم الرحمة ، ولدى الذين لا ينازعون الله فى كبريائه وعزته ، فلا يرون غيرهم من الخدم والفقراء والمساكين والضعفاء إلا أناسا لهم من الإنسانية ما للسادة والأغنياء والأقوياء ، وما مراتب الحياة بين الناس إلا لحكمة إلهية صرّف بها شؤون الناس ، ودبّر بها حركة المجتمع ، وما جعلها إلا ليحسن من هداه الله ، وليسىء من أضله الله . والرحمة من علامات الهدى .